الطور الرومنطيقي – الرمزي

الشعر العامي اللبناني

بقلم هارون عبود

احسب ان هذا الشعر العامي قد اصبح محسوباً على تاريخ الأدب. واذا لم يحتل الصدر في ديوان العرب فهو قد احتل زاوية من زواياه، ولفت اليه الأنظار حتى تمنى شعراء الفصحى ان يكون لهم مثل عاطفته وصوره، وموسيقاه المنسجمة، وألفاظه الناعمة التي صقلها الاستعمال. فالشاعر من هؤلاء هو ابن الزمان والمكان وهذا ما طلبه ويطلبه النقاد من الشاعر والكاتب.

سأل الفرزدق احد الرواة، ولعله شيخهم عمرو بن العلاء: من أشعر، انا أم ذلك الكلب جرير؟ فأجابه: انت عند العلماء وهو عند العوام. فارتاح الفرزدق لحكمه. ولما بلغ هذا القول جريراً ضرب فخذيه بكفيه وصاح: قد غلبته والله، فليس في الألف من الناس عالم واحد. وقال الأخطل في هذا المعنى: قلت بيتاً لم يقل مثله شاعر قبلي، فما دار على لسان احد. ونقضه جرير فلم تبق سقّاية إلا روت ما قال.

اظن ان هذا السبب هو الذي يقدم اليوم الشعر العامي على الشعر الفصيح عند الجمهور. حضرت مأتم شاعر ليس فينا من هو اشد منه إخلاصاً للغتنا العربية، فرثوه بنثر بليغ وشعر يستحق ان نسمعه، فما تحركت الجماهير ولا ماجت الرؤوس كالحصاد إلا حين وقف شعراء العوام، وكلموهم بالألفاظ الدائرة على ألسنتهم. ليس هذا فقط هو سبب الاستحسان بل هناك صور قلما نجدها في شعرنا الفصيح، واذا وجدت فهي لا تظفر بالكلمات التي تبرزها وتلونها لأن اكثر شعرائنا ليسوا من فقهاء اللغة، وهب انهم كانوا، فماذا ينفع الفقه من لا يدرك ما تقوله له؟.

واني لأظن ان هذه الحالة هي التي نشرت بيننا هذه البدع الحديثة: بدعة الحرف اللاتيني، وبدعة الخروج على اصول اللغة، وبدعة اللغة العامية. واللغة العامية التي يدعون اليها اي غرض تؤدي في ميادين الفكر؟! انها لا تصلح الا لهذا الزجل، ومتى تخطت تخومه بدت هزيلة ضعيفة. لا أصدر هذا الحكم عليها بدون فذلكة ولا حيثيات، فحسبك ان تقرأ مقدمتي ديواني (جلنار) لميشال طراد، و (من قلبي) لأسعد سابا لترضخ لحكمي فلا تعترض ولا تستأنف.. كلتا المقدمتين للشاعر سعيد عقل، ومن شاء ان يعرف تفاهتها فما عليه الا ان يقرأ مقدمتي قصيدته (المجدلية) ومسرحيته (قدموس).

ان سعيد عقل شاعر من الطراز الأول، ولكنه يريد ان يكون زجالاً وشاعراً فرنسياً، وانا خائف عليه من هاتين النكبتين..

قال سعيد في ختام مقدمته لديوان اسعد سابا «هنّي – اي شعراء الزجل – اليوم شعرا الشرق» ولعل سعيداً لا يكفيه ان يكون من هو، فحاول ان يكون من شعراء الشرق فانبرى لمجاراتهم في ميدانهم.. اني انصحه لوجه الله ألا يقدم على هذا العمل فانه دون شك يقصر عنهم. اما بان هزاله في مقدمتيه.

ان ميشال طراد واسعد سابا لا تطل عليهما اللفظة الفصيحة، وسعيد عقل لا تأتيه الكلمة العامية الا بعد اصطدامها باختها الفصيحة، وهذا سر الزجل اللبناني الذي هو بضاعة للاستهلاك لا للتصدير.

عجيب امرنا كيف نتحدث عن (الاشعاع) ولا نعمل له. ان الاشعاع الفكري يتطلب زيتاً يصب دائماً في السراج وليس هو راديوم مدام كوري. فاذا ترك الفانوس انطفأ. كنا نمتن على غيرنا يوم كانوا يشكون خنجراً ونشك نحن دواة وقلماً. كان ذلك يوم كان تيوفيل الرهاوي وغيره قابضين على ناصية العلم. وبكلمة مختصرة ان لبنان الفينيقي والسرياني كان لبنان اشعاع. فالفينيقيون كانوا صناعاً وتجاراً مهاجرين، والمهاجرة

«عجيب امرنا كيف نتحدث عن «الاشعاع» ولا نعمل له! ان الاشعاع الفكري يتطلب زيتاً يصب دائماً في السراج، فاذا ترك الفانوس انطفأ... كم اتألم حين أسمع كلمة «اشعاع» والتفت حولي فلا ارى الا من يحاولون جرّنا الى الوراء، طالبين منا ان نتخلى عن ميراثنا وتركتنا الضخمة في لغة العرب، لنتحصر في لغة عامية لا تفهم على حقها الا في هذا المليمتر من خريطة الشرق!»

مدرسة كبرى . والسريان كانوا يحذقون لغة غير لغتهم الامّ فنقلوا وعربوا وألفوا . وظهرت هذه الخاصة في بقاياهم فعملوا مثلهم . اما اليوم فضوء سراجنا ينوس . كم اتألم حين اسمع كلمة اشعاع والتفت حولي فلا ارى إلا من يحاولون جرنا الى الوراء ، طالبين منا ان نتخلى عن ميراثنا وتركتنا الضخمة في لغة العرب ، لتنحصر في لغة عامية لا تفهم على حقها إلا في هذا الميليمتر من خريطة الشرق .

ودعاة الحرف اللاتيني ماذا نقول فيهم ؟ انهم يطلبون التسهيل ليقعوا في اشد الصعوبات . فمن منا ومنهم يحسن ضبط الكلمات حتى يكتبها بالحرف اللاتيني ؟. ومخارج الحروف ماذا نفعل بها ؟! ان للحروف الساكنة موسيقى يعتد بها ، فاللغات الغربية تعتمد في موسيقاها الشعرية على الحروف الصوتية . اما نحن — لو تنبه شعراؤنا — فعندنا حروف شتّى من مخرج واحد ، فكأنها وضعت لينتقي منها الشاعر ما يلائم موضوعه ومقامه .

قد يقول قائل: اذا كنت تغار على الفصحى كما تقول فلماذا هذا الاهتمام بالشعر اللبناني العامي ؟

الجواب يا سيدي ، ان في كل فترات تاريخ الادب كان يظهر مثل هذا الشعر ويستحلى ويستملح . كما ان بين الشعر الاول الفصيح وبين الزجل اقرب النسب ، فلم يكن امرؤ القيس اعلم من طراد ولا النابغة اوسع ثقافة من اسعد سابا .

كان يقال ذلك الشعر قبل علم العروض كما يقال هذا الشعر اليوم وميزانه الاذن والذوق. وكما تطور ذلك تطور هذا حتى صار الى ما صار اليه اليوم . واذا اعطينا الزجل حقه فلا يعني اننا نريد ان نجعل من اللهجة اللبنانية لغة قائمة برأسها . يكفينا من الزجل ان يكون لوناً محلياً نباهي به كما نباهي بالتفاح مثلاً ... فهو ثمرة فكرية لذيذة جداً . واذا كنت انا المتضلع من عامية لبنان تعصي علي بعض كلمات ، فما عسى العراقي والحجازي والمصري والـ ... ان يفهم منه ؟

اننا نحن اللبنانيين ، وخصوصاً الجبليين ، نتذوق هذا الشعر تذوقاً كاملاً ، ونطرب له كما يطرب البدوي — امس واليوم — للشعر الجاهلي لانه يحسه اكثر منا ولانه يصور له اشياء لا تزال تقع عليها عينه . وبعد فاني ارى شعرنا العامي يمشي عند بعض شعرائنا نحو الفصحى وهذا قتل له . فخير للشاعر العامي ان يلم الفاظه من الشارع لا من الكتب عملاً بالكلمة المأثورة : لكل مقام مقال . وانا لم اختر هذين الشاعرين ميشال طراد واسعد سابا الا لانهما غارقان إلى آذانهما في اللهجة العامية ، ولان شعرهما يمثلها اصدق تمثيل ، ولانهما مدرسة جديدة .

من قلبي — لأسعد سابا

اذا قرأت هذا الديوان رأيت ان شعر اسعد ليس من قلبه فقط بل هو من قلبه وكبده المقروحة . صور ساذجة طريفة ، والوان زاهية ، والفاظ كالشحنات الكهربائية تولد نوراً وناراً . فمدرسة طراد وسابا تسير مع مدرسة الشعر الحديث فكأنها تقول لها : شدّي حيلك لنرى من يسبق الى ما يسمونه اليوم رمزاً .

ولا احسبني اسيء الى شاعرنا سعيد عقل اذا قلت ان في ديوانه « رندلى » لفتات كريمة الى ديوان طراد . واذا اتقينا غضبه قلنا: ان في ديوانيهما ملامح كثيرة من رندلي سعيد.

ان زجل هذين الشاعرين ينحت نحتاً ويسبك سبكاً ، وكان العهد بالزجل ان يرتجل ارتجالاً ، ولهذا اقول ان (القول) بدأ مع رشيد نخله ان يكون فناً كالشعر الفصيح ، ومن مدرسة ابي امين اشتقت هذه المدرسة الزاهرة .

ان ديوان اسعد سابا مقسم بين لبنان وحلوات لبنان ... فاسعد كرج تحت سنديانة غوسطا ، وتفتحت عيناه على تلك الظلال والالوان فانطبعت صورها فيها . وهناك بين شماريخ تلك الجبال العاصية التي تقول للبحر : ان كنت بطاشاً كما قالوا عنك ، تفضل شرف . وابو العين الزرقاء يحتد ويشتد وهكذا ترتسم الصور الشعرية في مخ اسعد سابا فيقول في قصيدته الاولى (بلادي واهلي وانا)

هالصخرة اللي متنحرى حد الفضا ... ولفتاتها ع مد عينك والنظر
للعواصف والبحور ممرضا ... بتقول انا للورد بالو اللي خطر

واذا قرأت قصيدته التي عنوانها (بيتي) تراءى لك عيانا تمسك اللبناني ببيته وضيعته وحنينه اليها :

بيتي السكران القمر حدو ... مشتاق ارجع ليه
ونفض غبار العتم عن عينيه
ولو نهد عمر الدهر ما بهدو ... بيتي الدني وحدو
ربي يرد العز تاردو

ومن قصيدة (اول حرف) يقول :

من هون... من لبنان حاكينا العما ... قبل كل الانبيا وكل العصور
ندهنا الشمس ردت علينا بالوما ... فرشنا الدني من وهجها تربات نور

ويتخطى الشاعر الى وصف يسوع ومريم العدرا . وإن لم تعجبني كتابتها بالدال بدل الضاد كما نلفظها في كسروان منطقة الشاعر .

ويخص الشاعر بعض كتابنا وشعرائنا بقصائد ولكنها

لا تنزل ابداً الى دركة المدح المبتذل . ويجيء دور (الحب) فيذوب اسعد سابا ويصبح شعره اكسيراً يعلّ القلوب ويذكرنا بعهود نسيانها .. شعر انعم من غزل البنات ، فيه من الالتفاتات المدهشة ما يثبت النظرية القائلة : ان الشعر لا يحتاج الى منطق وفلسفة كما قال البحتري في ذلك الزمان . ومن يقرأ قصيدة (طقمي) في هذا الديوان يدرك ان في هذا الشعر العامي خاصة قوية بارزة الا وهي خاصة التجسيد. فاعجابي بهذه القصيدة لا يقل ابداً عن اعجابي بقصيدة ابن الرومي في وصف طيلسان ابن حرب ذلك الوصف البارع .

واما وصف هؤلاء الشعراء فعذب طريف كما تقرأ :

حد البحر شفتك عارملو مشلقحا ... بتحلمي احلام بيضا مفرفحا
والليل عميشلحك فسطان نور ... ويقول وين الكون؟ والكون انحنا

وعندما يسأل الشاعر شباك المحبوبة الاخضر نتذكر قصيدة عمر عندما جاء يسأل المنزل هل فيه خبر :

لوين يا شباكها الاخضر ... راحت لوين بتقدر تقلي
ها التاركي فصطانها الاحمر ... منشور بالهوا مدردر
مدهده وباصر شي بنامو ... لمين عميلولو كامو ؟
لمين ؟ يا شباكها الاخضر ... قولك بترجع بعد ؟
بتطل ع مهلا ؟ ... وعيني بعينا تغيب ، تندهلا
وتفيقا ع العهد
وتاخد منا شي وعد ... شو قولتلك بعدا بتتذكر
شي بعد ! يا شباكها الاخضر

وبعد فأرى ان الشاعر العامي يوسع على نفسه ولا يضيق فهو يقول شبّاكها وفسطانها بدلاً من شبّاكاً وفسطانا .

جلنار ميشال طراد

عام مات جبران خليل جبران كان ميشال طراد من تلاميذي في الجامعة الوطنية ، واقام طلاب مدرستنا حفلة تأبينية لجبران فأجاد ميشال الرثاء . وفي بحر السنة كان قد قرأ على رفاقه قصيدته (ليلة العرزال) فلم يصدقوا انها من قوله . فاما انا فلم استغرب ذلك ودفعته الى الامام فقال غيرها . وعندما طلّق ميشال المدرسة ارسل قطعة من شعره الى «عاصفة» الاستاذ كرم ملحم كرم فأعجب كرماً قول ميشال فنشره تحت عنوان : ابن عمّ الشعر . ولمع نجم ميشال واعجب به المثقفون فاحتل هذا المقام المرموق فكان منه هذا الشاعر الفذ . واخيراً ظهر ديوانه (جلنّار) وهو جلنار حقاً ، نور يرسله كلاماً يخلب الالباب ويبهر العيون . شعر فيه زبرج وبهرج . ريش الطواويس ، وكرّات الكناري وزقزقة الحساسين . صور والوان . نغمة طاغورية وان لم تعرف الصوفية . وحكايات عمرية لا تبذل فيها . قصائد يخرجها الشاعر في ثياب القصة فتأتي مفصلة على القد .

ان ديوان جلنّار مطبوع أجمل طبع ، ومصدر كديوان اسعد سابا بمقدمة كتبها زعيم الرمزية الشاعر سعيد عقل ، فاثبت لنا ان لغتنا العامية اذا كانت تصلح اداة للشعر العامي فهي عاجزة كل العجز عن تأدية الفكر ، وهي ان ادّته فانما تؤدّيه بما يضحك الثكلى فوق نعش وحيدها .

اسمع ما يقول: « ... كان كل شي بالطبيعا عميوعد بنجمي جديدي . ما بعرف ، ما بعرف ، انا كنت متأكد إنو راح يخلق ميشال طراد . التصوير كان من خمسين سني بلنّش لعبتو . داوود القرم مش شي عادي . والفلسفي ما كان بقا الا تطلّ . ومثل ما اليوم نحنا بلهفي وعينين مجروحا — سلامتها يا حبيبي — ناطرين تبليشة العلم ، مأكد واحد مثل فؤاد البستاني عندو لفتي شاملي ع تاريخ الفكر ، ولا نوع قدّه المعرفي بيقدر يحب ما كان مستغرب إنّو يحسب للنجوم الطالعا) .

ألا تقول معي حين تقرأ ديوان جلنار ومقدمته : اننا حين ننتقل من مقدمة سعيد عقل العامية الى زجل ميشال طراد نكون كمن ينتقل من قطعة حرش فيها السنديان والبطم والقندول والعلّيق والطيّون الى حديقة حديثة أحكم ترتيبها وتنظيمها وهي حافلة بالخضرة الدائمة والعطر الابدي ؟ . فصاحبنا سعيد بدلاً من ان يقدّم ميشال طراد قدم سعيد عقل وحلمه بمار تومـا جديد .. وجعل من الاستاذ فؤاد افرام البستاني أبا معشر الفلكي الذي (يحسب للنجوم الطالعا) . ان النجوم متى طلعت لا تحتاج الى من يحسب لطلوعها . اما قلت لك ان اللغة العامية لا تؤدي الفكرة تأدية انيقة ؟. قلت واكرر القول : اناخائف جداً على سعيد عقل الشاعر من سعيد عقل المتفلسف ، وسعيد عقل الزجال ، وسعيد عقل الشاعر الفرنسي ... انهـا ثلاث بطيخات لا بطيختان . اللهم نجّ سعيد عقل من سعيد عقل !

اما تلميذي ميشال طراد فقوّال فنان ، والفن عادة يكون ظاهر التكلف ، ولكن طبيعة ميشال طراد وتأنقه تمحو آثار تكلفه فتخال ان ما يقوله قد جاءه عفو الطبع مع انه يفتش عن الكلمة شهراً وشهرين ، ويظل يركض مشمراً خلفها .

وبعد فماذا في ديوان جلنار من عصارة قلب ميشال طراد وخلاصة شبابه ؟ الجواب : كل شيء . ولا عيب في شعره إلا انه لا يستطيع قراءته على حقها كل من يحسن القراءة . فهناك

أبيات (قولبتها) مراراً في حنكي حتى استقامت، هذا هـو الاجمال اما التفصيل فهذا هو :

في مطلع الديوان يعتذر الشاعر الى ربه باسلوب (افرامي) بديع لأن اسم جلنّار يسبق الى فم ميشال قبل اسم الله . ولا شك ان الله الغفور الرحيم سيغفر لميشال كما غفر لمار افرام .

وشاعرنا يعتقد كبعض اصحابنـا ان بين الزهرة والنحلة والفراشة حباً جما ، وفي ذلك قال قصيدة رائعة جداً بعنوان (نغمشي) يزينها هذا الحوار البديع :

قديش ه الوردي عمتكتر حكي وبتضل هي وه الكنار بوشوشي
مبارح غمش عنقا بضفرو الليلكي واليوم بقح صدرهـا من الغرمشي
شوباك، يعني شو ؟ وانتي شوبكي؟ ـ حسيت دخلك هيك متلي بنغمشي ؟

وعند ميشال ظرف يكاد لا يدرك تلمسه في مطلع قصيدة (تشكيلة فسطان) حيث يقول بلسان صاحبته :

الله ! بعدو الورد عنا زغير ما بينقطف منو
واهلي بيقولولي بعد بكير ورداتنا بيظهر بيتانو

وميشال كغيره من شعراء الرمزية يحب العيون الخضر، اما انا فلا افهم هذه العيون الحربائية التي يهيم بهـا شعراء اليوم !! وننتقل من غرام النحل والزهر الى غرام الزنبق، فعشق الورد والبلبل ، وهذه مناجاتهما :

اجريك يابلبل مبللها الندي ضايقتني ما تفطر عا غصوني
بتضلك تفرفر م حلك تهتدي فيقتنيَ من الحلم يا عيوني

حقاً ان احلام هـؤلاء الشعراء قد فاقت حد احـلام الرومنطيقيين ، وتصوراتهم فاقت تصورات الاديبـة ميّ في آخر ايامها ..

وهكذا يمضي ميشال في قصصه الزجلي البديع ، ومناجاته الرائعة وتصوراته المستطابة ، كقوله في وصف حلوة الحلوين :

يا عيون ، يا الكلاّ صلا وعيـاد وشعانـين

وقصيدة (رَحْ حلفك بالغصن يا عصفور) تعدّ في مقدمة الشعر الوجداني المعاصر حكاية وسياقاً وحلاوة تعبير .

ونسير في دنيا ميشال طراد حتى نقف عند قصيدة (قنديل احمر) ، لم يعجبني هذا العنوان لان فحوى القصيدة يدلنا على ان صاحبته لا تستأهله . . وزاد في استيائي ان وزن اللازمة لم يستقم لي بعد علكها ستة اشهر ، وها انا اعرضها على ميشال :

وحاج تحرنقيني وحاج تتحرنقي

ان الاختيار من ديوان كهذا صعب جـداً لان هؤلاء الشعراء حريصون جداً على تنقية شعرهم من الزوان والشيلم . ليسوا كشعراء الفصحى الذين يجمعون دواوينهم بعفشها ونفشها.

ومن أجمل روائعه قصيدة (مش فايقا) ولعـل القارىء يخاطر بثمن نسخة فيقرأها وهو رابح . . وهناك قصيـدة عنوانها (يمكن وقع دملج) لم اقرأ قصيدة مثلها نعومة ، واما نحلات مار عبدا فلا أتعجب اذا هاجموها ..

وهكذا يظل القارىء ينتقـل في الديوان من حسن الى احسن حتى كدت اقول ان ديوان « جلنـار » كعرس قانا الجليل الذي قدمت في آخره اجود الخمر . . ولكن هـذا لا يعفي تلميذنا الطاهر من النقد وان لم يكن لاذعاً مثـل نحلات مار عبدا المشمّر ..

اذا سمح لي تلميذي ان ابدي رأيي في الزجل قلت انه حين خاطب العصفور الذي حلّقه بالغصن قال :

وَخلاّ الدنيَ بلادك وطرّز عَ منقادكَ

أليس الاقرب الى العامية ان يقول : وخلا الدني دارك ، وطرز عا منقارك ؟ فالعوام يقولون منقار لا منقاد .

ثم قوله في قصيدة : هَ القلب عَ الشاطيء الاخضر . أنسي ميشال ان اللغة العامية عدوة الهمزة ؟!..

وهنالك هنات اخرى مثل نظراتـه الى الشعراء الذين تعلم شعرهم فقال في بيت : ودعت قلبي يوم قلبي ودعك . وقوله في قصيدة اخرى : متل شي زورق محمل ارجوان يذكرني بزورق ابن المعتز : قد اثقلته حمولة من عنبر . ثم لماذا قال زورق ولم يقل قارب . وهي الى العاميـة اقرب . اما تصرفه في بعض اللفظات ليستقيم الوزن كقوله : سسان في سوسان . وغيرهـا مثل : الصيغين والمجنين والدلين وصبيع ، فهـذا يفقد القول بعض روعته . ان (كعوكة) الكلمة هكذا يفقدها كثيراً من خواصها ، فالكلمة يجب ان تأخذ راحتها وتمد رجليها ...

واخيراً ليت شـاعرنا ختم ديوانه الضاحك المتهلل بقصيدة (الحب زوّادي) لا بقصيدة (حزن) .

حاشية : اني ارى قرابة كبيرة بين جلنار ورندلى . قرابة لايحللها بطريرك بل يقتضي لها بابا لإنها اكثر من درجة رابعة... فالشال والقمر والاشياء الاخرى ... وانت وانا وحبقة وشي سلة قناني ، صوت صارخ يؤيد ما اقول .

لايعنيني ان اصفي هذا الحساب، ولعل (ابا معشر الفلكي) الذي قال عنه سعيد في المقدمة (انو يحسب للنجوم الطالعا) ... يعرّفنا أية نجمة طلعت قبل ...

مارون عبود